الحديث الأول

بدء الوحي

عن أمِّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت:

كان أوَّل ما بُدئ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصَّادقة في النَّوم، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصُّبح[1]، ثمَّ حُبِّبَ إليه الخلاء[2]، فكان يخلو بغار حراءٍ، يتحنَّثُ فيه، ـ وهو التَّعبُّد ـ اللَّياليَ أولاتِ العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثمَّ يرجع إلى خديجة، فيتزوَّد لمثلها، حتَّى فَجِئَهُ[3] الحقُّ وهو في غار حراء.

فجاءه الملك، فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: «فأخذني، فغطَّني[4] حتَّى بلغ مني الجَهْدَ[5]، ثمَّ أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئٍ. فأخذني فغطَّني الثَّانية حتَّى بلغ منِّي الجَهْدَ، ثمَّ أرسلني، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئٍ. فأخذني فغطَّني الثَّالثة حتَّى بلغ منّي الجَهْدَ، ثمَّ أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

---

(١) فلق الصُّبح: ضياؤه، وإنَّما يقال هذا في الشَّيء الواضح البيِّن.

(٢) الخلاء: الخلوة.

(٣) فجئه: جاءه الوحي فجأةً، ويجوز أن تقول: فجأه.

(٤) غطَّني: عصرني، وضمَّني، وضغطني، وخنقني.

(٥) الجَهْدُ: الغاية والمشقَّة.

فرجع بها رسول الله ﷺ تَرْجُفُ بوادرُه[1] ، حتَّى دخل على خديجةَ ، فقال: «زمِّلوني زمِّلوني!»[2] فزمَّلوه حتَّى ذهب عنه الرَّوْعُ ، ثُمَّ قال لخديجة: «أي خديجةُ! مالي؟ . . .» وأخبرها الخبر ، قال: «لقد خشيتُ على نفسي!».

قالت له خديجة: كلا ، أبشرْ! فوالله لا يُخزيك اللهُ أبداً! واللهِ إنَّك لتصل الرَّحم ، وتصدُق الحديث ، وتحمل الكَلَّ[3] ، وتكسِب المعدوم[4] ، وتَقري الضَّيف ، وتُعين على نوائب الحقِّ.

فانطلقت به خديجة ؛ حتَّى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أَسَدِ بن عبد العُزَّىٰ ، وهو ابن عمِّ خديجة أخي أبيها ، وكان امرأً تنصَّر في الجاهليَّة ، وكان يكتب الكتاب العربيَّ ، ويكتب من الإنجيل بالعربيَّة ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ.

فقالت له خديجة: أيْ عمِّ! اسمع من ابن أخيك.

قال وَرَقَةُ بن نَوْفَل: يا بن أخي! ماذا ترىٰ؟ فأخبره رسولُ الله ﷺ خبر ما رآه.

فقال له وَرَقَةُ: هذا النَّاموس الَّذي أُنزل على موسىٰ ﷺ. يا ليتني فيها جَذَعاً ! يا ليتي أكون حيّاً حين يُخرجك قومُك!

قال رسول الله ﷺ: «أومُخرِجيَّ هم؟!».

قال وَرَقَةُ: نعم ، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئتَ به إلا عودي. وإن يُدركني يومك؛ أنصرْكَ نصراً مؤزَّراً[5].

---

(١) البوادر: جمع بادرة وهي اللَّحمة التي بين المنكب والعنق تضطرب عند فزع الإنسان.

(٢) زمِّلوني: غطُّوني بالثِّياب ، ولفُّوني بها.

(٣) الكَلُّ: الضَّعيف ، وهو في الأصل: الثِّقل ، ويطلق الكَلُّ على الواحد ، وغيره ، والكَلُّ هو من لا يستقلُّ بأمره كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ [النحل: ٧٦] والكَلُّ: اليتيم ، والَّذي لا ولد له ، ولا والد.

(٤) أي: تكسب غيرك المال المعدوم ، أو تكسب الرَّجل المعدم.

(٥) صحيح البخاريّ رقم ٣ ، ومسلم برقم ١٦٠ ، ومسند أحمد ٦/ ١٥٣ ، والتِّرمذي ٣٦٣٢ ، وانظر «الفتح» ١/ ٢٢ وشرح مسلمٍ للنوويّ ٢/ ١٩٧.

في هذا الحديث الجميل الجامع كلامٌ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ عن بدء الوحي ، وكلامٌ لرسول الله ﷺ ، وكلامٌ لخديجة رضي الله عنها ، وكلامٌ لورقة .

وفيه الحوار الَّذي جرىٰ بين الرَّسول ﷺ والمَلَك ، والحوار الَّذي دار بين الرَّسول وخديجةَ ، والحوار الَّذي كان بين الرَّسول وورقةَ ، وشاركت فيه خديجةُ أيضاً .

وفيه بيانٌ لطرفٍ من أخلاق النَّبيِّ ﷺ قرَّرته السَّيدة خديجة رضي الله عنها ، وبيانٌ لجانبٍ من سلوكه ، وسيرته قبل النُّبوَّة ، وفيه تقريرٌ لسنَّةٍ مضت في أنبياء الله ؛ في أنَّهم يقابَلون بالتَّكذيب ، والعداوة ، ثمَّ الإخراج من الأوطان .

وفي هذا الحديث ما يدلُّ على سعة عقل السَّيدة خديجة ، وثقتها المُطلَقة في رسول الله ﷺ ، وحَدَبها على زوجها ، وإدراكها لسنن الله الكونيَّة .

وفيه ترجمةٌ موجزةٌ لورقة بن نوفل ، ولثقافته ، واطِّلاعه .

وسنفصِّل القول في هذه الأمور ؛ الَّتي عرض لها الحديث . وسنتأمَّل اللَّفتات البيانيَّة ؛ الَّتي نقف عليها فيه ، وهي كثيرةٌ ، ولكنَّنا قبل ذلك نرى أن نورد كلمةً عن رواية عائشة لهذا الحديث ، فعائشة رضي الله عنها لم تكن قد وُلِدت عند بدء الوحي ، ذلك لأنَّها ولدت في السَّنة التَّاسعة قبل الهجرة ، والبعثة كانت في السَّنة الثالثة عشرة قبل الهجرة . قال الإمام النَّوويُّ[1] : [هذا الحديث من مراسيل الصَّحابة رضي الله عنهم ، فإنَّ عائشة ـ رضي الله عنها ـ لم تدرك هذه القضيَّة ، فتكون قد سمعتها من النَّبيِّ ﷺ ، أو من الصَّحابيِّ . وقد قدَّمنا في الفصول : أنَّ مُرْسَلَ الصَّحابيِّ حجَّةٌ . . .] .

قلت : وفيما قاله الإمام النَّـوويُّ نظرٌ ، فإذا كانت سمعت هذه القصة من رسول الله ﷺ ؛ فكيف يكون الحديث مرسلاً؟ إنَّه عندئذٍ يكون متَّصلاً . نعم لو

---

(١) شرح مسلم ٢/ ١٩٧ .

سمعته من أحد الصَّحابة ؛ كان من مراسيل الصَّحابة ، وهي صحيحةٌ دون شكٍّ ؛ لأنَّهم جميعاً عدولٌ. والله أعلم.

كانت أمُّ المؤمنين عائشة أفقه نساء المسلمين ، وأعلمهنَّ بالدِّين ، والأدب ، وقد أكثرت من الرِّواية عن رسول الله ﷺ ، وكان أكابر الصَّحابة يسألونها عن الفرائض ، فتجيبهم ، وروت عن أبيها أبي بكرٍ ، وعن عمر ، وعن غيرهما من الصَّحابة الشَّيء الكثير. كان مسروق إذا حدَّث عن عائشة ؛ قال: حدَّثتني الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق ، حبيبة حبيب الله تعالى ، المبرَّأة من فوق سبع سمواتٍ. وقال أبو موسىٰ الأشعريُّ: ما أشكل علينا ـ أصحاب محمَّدٍ ﷺ ـ أمرٌ قطُّ ، فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً.

ذكرنا: أنَّ في هذا الحديث أموراً عديدةً ، منها: بدء الوحي ، وعرضٌ لبعض صوره ، أمَّا بداية الوحي بالرُّؤيا الصَّادقة ؛ فهذا من التَّمهيد ، والتَّهيئة للوضع الجديد ؛ الَّذي سيكون فيه رسولُ الله ، والتدرُّج سنَّةٌ من سُنَن الله في خلقه ، نَتَبَيَّنُها في كثيرٍ من أمور الشَّرع ، وأحكامه. جاء في شرح مسلم: [إنَّما ابتدئ ﷺ بالرُّؤيا ؛ لئلا يفجأه الملك ، ويأتيه صريحُ النُّبوَّة بغتةً ، فلا تحتملها قوى البشريَّة ، فبدئ بأوَّل خصال النُّبوَّة تباشير الكرامة من صدق الرُّؤيا. . .] نعم إنَّ ابتداء الوحي بالرُّؤيا تمهيدٌ فيه معنى الرِّفق ، والتدرُّج ، وفيه إكرامٌ من الله لعبده ، ورسوله ؛ كيلا يفاجأ بالوحي ؛ الَّذي ذكر القرآن : أنَّه قولٌ ثقيلٌ ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥] وقال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١] إنَّ هذا التَّمهيد ليتيح للقلب العظيم ؛ الَّذي هو أثبت من الجبال أن يستعدَّ لتلقي هذا الوحي وهذا القرآن العظيم ، وقد قال ﷺ فيما أخرجه مسلمٌ: «رؤيا الأنبياء وحيٌ»[1] وقد جاء في القرآن الكريم ما يدلُّ على ذلك؛ فقد قال تعالى في قصَّة إبراهيم ، وإسماعيل

---

(١) أخرجه البخاريُّ من قول عُبيد بن عُمير في موضعين برقم ١٣٨ ورقم ٨٥٩ ، وعُبيد بن عُمَير من كبار التَّابعين ، ولأبيه عُمَير صحبةٌ. قال ابن حجر ١/ص٢٣٩ : [وقوله: «رؤيا الأنبياء وحي» رواه مسلمٌ مرفوعاً].

عليهما السَّلام: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠١ ـ ١٠٥] ووجه الاستدلال: أنَّ الرُّؤيا لو لم تكن وحياً؛ لما جاز لإبراهيم عليه السَّلام الإقدام على ذبح ولده[١]، وكذلك لم يقل الابن لأبيه: افعل ما تؤمر، فقد أدرك: أنَّ الرُّؤيا وحيٌ من الله تضمَّن أمره بذبح ولده.

بل لقد دلَّت الأحاديث الصَّحيحة: أنَّ الرؤيا من الرَّجل الصَّالح جزءٌ من بضعٍ وأربعين جزءاً من النُّبوَّة[٢].

وذكر النَّوويُّ، وابن حجر: أنَّ هناك مع الرُّؤيا الصَّادقة كانت إرهاصاتٌ أخرىٰ تمهِّد للنُّبوة[٣] ثمَّ حَبَّب الله إليه الخلوة؛ ليكون أكثر استعداداً لتلقِّي الوحي، ففي الخلوة فراغ القلب، وصفاء الذِّهن، والبعد عن مشكلات الحياة، وصوارف العيش، والخلوة معينةٌ على التأمُّل، والتَّفكُّر، وبها ينقطع المرء عن مألوفات البشر، ويتخشَّع قلبه.

إنَّ تلقِّي الوحي أمرٌ ليس بالهيِّن... إنَّه يحتاج مستوىً عالياً جدَّاً من السُّموِّ الرُّوحيِّ، وقوَّةً في التَّحمُّل كبيرةً جداً. والله يصنع رسله على عينه... فكان ما جاء في الحديث تمهيداً، وتوطئةً.

قال الأستاذ سيِّد قطب في حادثة الوحي: [إنَّه حادثٌ ضخمٌ. ضخمٌ جدَّاً. ضخمٌ إلى غير حدٍّ. ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته؛ فإنَّ جوانب كثيرةً منه ستظلُّ خارج تصوُّرنا. إنَّه حادثٌ ضخمٌ بحقيقته، وضخمٌ بدلالته،

---

(١) الفتح ١/ ٢٣٩.

(٢) انظر أحاديث كثيرة في الرؤيا في صحيح البخاري بأرقام ٦٩٨٢ ـ ٧٠٤٧ وصحيح مسلم ٢٢٦١ إلى ٢٢٧٥ هذا وهناك كلمةٌ كتبتُها عن الرُّؤيا في كتابنا «توجيهاتٌ قرآنيَّة» ١٧٥ ـ ١٨٨.

(٣) منها رؤية الضَّوء في اليقظة، وكلام الحَجَرِ، والشَّجَرِ، وسماع الصَّوت. الفتح ٢/ ٢٣ والنَّووي ٢/ ١٩٨.

وضخمٌ بآثاره في حياة البشريَّة جميعاً ، وهذه اللَّحظة الَّتي تمَّ فيها هذا الحادث تعدُّ ـ بغير مبالغة ـ هي أعظم لحظةٍ مرَّت بهذه الأرض في تاريخها الطَّويل .

ما حقيقة هذا الحادث الَّذي تمَّ في هذه اللَّحظة؟

حقيقته : أنَّ الله جلَّ جلاله العظيم ، الجبَّار ، القهَّار ، المتكبِّر ، مالك الملك كلِّه قد تكرَّم في عليائه ، فالتفت إلى هذه الخليقة المُسمَّاة بالإنسان ، القابعة في ركنٍ من أركان الكون؛ لا يكاد يرىٰ؛ اسمه : الأرض . وكرَّم هذه الخليقة باختيار واحدٍ منها؛ ليكون ملتقىٰ نوره الإلهيِّ ، ومستودع حكمته ، ومهبط كلماته ، وممثِّل قدره الَّذي يريده سبحانه بهذه الخليقة ، وهذه حقيقةٌ كبيرةٌ . كبيرة إلى غير حدٍّ . تتكشَّف جوانبُ من عظمتها حين يتصوَّر الإنسان ـ قدر طاقته ـ حقيقة الألوهيَّة المطلقة الأزليَّة الباقية ، ويتصوَّر في ظلِّها حقيقة العبوديَّة المحدودة الحادثة الفانية ، ثمَّ يستشعر وقع هذه العناية الربَّانيَّة بهذا المخلوق الإنسانيِّ ، ويتذوَّق حلاوة هذا الشُّعور ، ويتلقَّاه بالخشوع ، والشُّكر ، والفرح ، والابتهال . . وهو يتصوَّر كلمات الله تتجاوب بها جنباتُ الوجود كلِّه منزِّلةً لهذا الإنسان في ذلك الركن المنزوي من أركان الوجود الضَّئيلة .

وما دلالة هذا الحادث؟

دلالته ـ في جانب الله سبحانه ـ : أنَّه ذو الفضل الواسع ، والرَّحمة السَّابغة ، الكريم ، الودود ، المنَّان يفيض من عطائه ، ورحمته بلا سببٍ ، ولا علَّة سوىٰ أنَّ الفيض ، والعطاء بعض صفاته الذَّاتيَّة الكريمة .

ودلالته ـ في جانب الإنسان ـ أنَّ الله سبحانه قد أكرمه كرامةً لا يكاد يتصوَّرها ، ولا يملك أن يشكرها ، وأنَّ هذه وحدها لا ينهض لها شكرُه ؛ ولو قضىٰ عمره راكعاً ساجداً . . . هذه . . . أن يذكره الله . . . ويختار من جنسه رسولاً يوحي إليه بكلماته . وأن تصبح الأرضُ مسكنُه . . . مهبطاً لهذه الكلمات الَّتي تتجاوب بها جنبات الوجود في خشوعٍ ، وابتهال .

فأمَّا آثار هذا الحادث الهائل في حياة البشريَّة كلِّها ؛ فقد بدأت منذ اللَّحظة

الأولىٰ ، بدأت في تحويل خطِّ التَّاريخ ، منذ أن بدأت في تحويل الضَّمير الإنسانيِّ . . منذ أن تحدَّدت الجهة الَّتي يتطلَّع إليها الإنسان ، ويتلقَّىٰ عنها تصوُّراته ، وقيمه ، وموازينه . . إنَّها ليست الأرض ، وليس الهوىٰ . . إنَّما هو الوحي الإلهيُّ][1] .

حياته قبل البعثة وموقف خديجة :

في حديث السَّيدة عائشة أمِّ المؤمنين وصفٌ لحياة النَّبيِّ ﷺ قبل البعثة ، ولحياته في المدَّة الَّتي ابتدأ الوحي يتنزَّل فيها ، وذكرٌ لموقف خديجةَ العظيم . . تلك المرأة الفاضلة ، والزَّوج الحنون العاقلة ، الَّتي كانت عوناً لزوجها في هذا الحدث العظيم ، فهدَّأت من رُوْعِه ، وخفَّفت من ألمه ، وتأثُّره ، وصَحِبَتْهُ إلى مشيرٍ ناصح .

وأُحبُّ هنا أن أشير إلى أنَّ في مدوَّنات الحديث كلاماً رائعاً جميلاً جرىٰ على ألسنة بعض الصَّحابة ، وهو متَّصلٌ بالنَّبيِّ ﷺ ، وهو ـ عند المحدِّثين ـ حديثٌ ؛ لأنَّ تعريف الحديث هو قول النَّبيِّ ﷺ ، وفعله ، وتقريره ، ووصفه .

وواضح من هذا التَّعريف : أن ثلاثة أنواع من الحديث وصلت إلينا بأسلوب الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم ، فحكاية فعله ، وإيراد وصفه ، ونقل تقريره للأمور الَّتي جرت بمحضره ؛ كلُّ أولئك كان بأسلوب الصَّحابة ، وهناك روائع من هذه الأقوال يقف عليها المرء في كتب السُّنَّة ، وحديثنا الَّذي نحن الآن في صدد دراسته واحدٌ منها ، وأذكر منها أيضاً : قصَّة الثَّلاثة الَّذين خُلِّفوا ، وحديث الإفك ، وغيرهما كثيرٌ .

طرق الوحي :

لننظر إلى قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ : «أوَّل ما بدئ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصَّادقة ، فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبْح» .

يرىٰ الرُّؤيا في المنام . . وإذا بها تتحقق بحذافيرها في اليقظة بوضوحٍ تامٍّ ،

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٣٦ تفسير سورة العلق .

ولا يوجد فرقٌ أبداً بين ما يراه في النَّوم ، وما يواجهه في اليقظة. وقد عبَّرت السَّيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن ذلك بقولها: «فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح».

وفلق الصُّبح: ضياؤه ، ولا يقال هذا المثل إلا في الشَّيء الواضح البيِّن: إنَّ ضياء الفجر يعمُّ الوجود ، لا يخفىٰ على مَنْ ينظر إلى الأفق ، ولا سيَّما إن كان في الصَّحراء . وهذه الصُّورة معبِّرةٌ عن المعنىٰ أوضحَ تعبير.

ثمَّ ذكرت رضي الله عنها الطَّريقة الثَّانية من طرق الوحي ، وهي الَّتي تكون بوساطة المَلَك جبريل عليه السَّلام.

والوحي لغةً هو : الإعلام الخفيُّ السَّريع الخاصُّ بِمَنْ يوجَّه إليه؛ بحيث يخفىٰ على غيره ، أمَّا معنىٰ الوحي في الشَّرع ؛ فهو : تكليم الله سبحانه واحداً من عباده بطريقةٍ من طرق الوحي[1].

والوحي أمرٌ غيبيٌّ ، والإيمان بالغيب من أوَّل صفات المؤمنين ، ولا يكون المرء مؤمناً إلا بأن يؤمن بالغيب ، وما دام كذلك ؛ فلا نستطيع أن نفصِّل القول فيه إلا بحدود ما ورد في شأنه من النُّصوص الشَّرعيَّة.

ذكرت السَّيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ الحالة الَّتي كان عليها ﷺ عندما أتاه المَلَك.

لقد كان ﷺ يتحنَّث في الغار البعيد عن البلدة ، وجَلَبَتِها ، النَّائي عن مساكن النَّاس ، وأسواقهم ، ومراعيهم ، ومزارعهم ، الجاثم على قمَّة الجبل. وقد أتيح لي أن أزور هذا الغار. . فوجدت الصُّعود إليه صعباً عسيراً ، والوصول إلى سفحه من مكَّة يقتضي سيراً طويلاً ؛ حتَّى تُقطع المسافة.

إنَّ الإقامة في هذا الغار تحقِّق خلوةً حقيقيَّةً ، وعزلةً شعوريَّةً تامَّةً ، وبُعْداً عن المجتمع الَّذي يقوم على الشِّرك ، ويجثو تحت كثيرٍ من المظالم الاجتماعيَّة.

---

(١) انظر كتابي «لمحاتٌ في علوم القرآن» ٤٥.

كان ﷺ يأخذ معه زاده ، وشرابه ، ويذهب إلى ذاك الغار يتعبَّد ، وهذه العبادة كانت على دين إبراهيم. وذكر ابن حجر: أنَّ كلمة (يتحنَّث) وردت في سيرة ابن هشام. (يتحنَّف) وشرَحها بقوله: يتَّبع الحنيفيَّة ، وهي دين إبراهيم.

وقد جاء تفسير هذه الكلمة في متن الحديث ـ وهو مدرجٌ من كلام الزُّهريِّ كما رجَّح ذلك أهل العلم ـ قال: [وهو التعبُّد] وهذا التَّفسير تفسيرٌ بالمآل ، لأنَّ الكلمة إذا كانت: (يتحنَّف) فقد رأينا معناها ، وهو: يتبع دين إبراهيم ، وإذا كانت (يتحنَّث) فمعناها: يلقي الحِنْث ، ويتجنَّبه ، والحنث: الإثم ، كما قيل (يتأثَّم) إذا كفَّ عن الإثم. و(تحرَّج) إذا تحفَّظ من الحرج[1].

وجاء في سيرة ابن هشام ما يأتي: «كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء كلَّ سنةٍ شهراً ، وكان ذلك ممَّا تحنَّثُ به قريشٌ في الجاهلية. . . . وقال ابن هشام تقول العرب: التَّحنُّث ، والتَّحنُّف يريدون الحنيفيَّة ، فيبدلون الفاء من الثَّاء ، كما قالوا: جدث ، وجدف ، يريدون القبر]»[2].

وقولها (اللَّيالي أولات العدد) قال ابن حجر: [وإبهام العدد لاختلافه ، كذا قيل ، وهو بالنسبة إلى المُدد الَّتي يتخلَّلُها مجيئه إلى أهله ، وإلا فأصل الخلوة قد عرفت مدَّتها ، وهي شهرٌ ، وذلك الشَّهر كان رمضان ، رواه ابن إسحاق].

إنَّ في إيثارهِ ﷺ الخلوة ، والبُعد عن ذاك المجتمع الجاهليِّ القائم على الشِّرك درساً لأولئك الَّذين تضطرهم ـ ظروفٌ قاسيةٌ لا يقوون على التمرُّد عليها ـ تضطرهم إلى العيش في بلاد الكفر ، والجاهليَّة ، والشِّرك؛ إنَّ عليهم أن ينأوا بأنفسهم عن مخالطة المشركين ، ومعايشتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ذلك لأنَّ العزلة عن هؤلاء ، والبُعد عنهم يجعل المرء ناجياً من التأثُّر الكبير بهم ، ويتيح له أن يقيم وسطاً فاضلاً؛ ولو في عالم الشُّعور ، ويعينه في

---

(١) انظر فتح الباري ١/ ٢٣ والمصباح المنير مادة: أثم.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٥١ تحقيق السقا وزميليه.

الوصول إلى هذه الغاية أن يصادق الكتب الجيِّدة ، ويأنس إليها ، ويعاشرها ، وأن يتَّخذ العبادة الواجبة ، والمندوبة وسيلةً إلى الارتقاء بروحه ، والتَّسامي عن الواقع المنحرف ، وأن يستمرَّ على هذا حتَّى يلقى ربَّه ، أو يجعل الله له سبيلاً .

عن أبي سعيدٍ الخدريِّ ؛ قال : قال رجلٌ : أيُّ النَّاس أفضلُ يا رسول الله؟!

قال : «مؤمنٌ مجاهدٌ بنفسه ، وماله في سبيل الله» .

قال : ثمَّ من؟

قال : «رجلٌ معتزلٌ في شِعْبٍ من الشِّعاب ، يعبد ربَّه [وفي روايةٍ : يتَّقي الله] ويدع النَّاس من شرِّه» متَّفقٌ عليه[1] .

ومن الأمور المقرَّرة : أنَّ الجليس الصَّالح خيرٌ من الوَحدة ، والوَحدة خيرٌ من جليس السُّوء . فقد أخرج الحاكم من حديث أبي ذرٍّ مرفوعاً : «الوَحدة خيرٌ من جليس السُّوء»[2] .

بينما كان ﷺ في غار حراء يتعبَّد الله ؛ إذ فاجأه الملك ، فقال : اقرأ . قال : «ما أنا بقارئٍ» قال ﷺ : «فأخذني ، فغطَّني ؛ حتَّى بلغ منِّي الجَهْدَ» . . وذكر أنَّ ذلك تكرَّر منه ثلاث مرَّاتٍ .

لنتصور حال هذا النَّبيِّ الكريم ؛ وهو جالسٌ في مكانٍ خالٍ في ذاك الغار ، يتعبَّد ربَّه في هدوءٍ ، وصفاءٍ ، واستمتاعٍ بالتأمُّل ، والفكر ، لا يعكِّر انفراده شغلٌ ، ولا جلبةٌ ، ولا يقطعه عمَّا هو فيه إنسانٌ ، ولا حيوانٌ . . . إذا هو يفاجأ بالمَلَكِ . . . وهو ﷺ لا يعرف : أنَّه مَلَكٌ .

وبدأه هذا الطَّارق الَّذي اقتحم عليه خلوته بقوله : (اقرأ) ، يخاطب بهذا الطَّلب الرَّجل الأميَّ ؛ الَّذي لم يكن يتلو من كتابٍ ، ولم يكن يخطُّ بيمينه سطراً ، ولا كلمةً . . إنَّها مفاجأةٌ مخيفةٌ مفزعةٌ . فيردُّ ﷺ عليه : «ما أنا بقارئ»

---

(١) البخاريُّ ١١ برقم ٦٤٩٤ ومسلم ٣/ برقم ١٨٨٨ .

(٢) المستدرك ٣/ ٣٤٣ وقال ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٣١ : وسنده حسنٌ .

وعندئذٍ يعمِد هذا الوافدُ الضَّخم القوي ، فيضمُّه إليه ضمَّةً شديدةً ، ويعصِره عصراً كاد يخنُقه حتَّى بلغ منه الجَهْد . . . ثمَّ أرسله ، وطلب إليه ثانيةً أن يقرأ ، فأجابه : أنَّه ليس بقارئٍ . . . فيغطُّه . . . ويتكرَّر الطَّلب ، والغطُّ ثلاث مرَّاتٍ ، ثمَّ يقول له : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

ثمَّ لا نجد ذكراً لِلْمَلَكِ . . فقد يكون انصرف بعد ذلك . . وغاب عن ناظريه . . وغيابُه المفاجئ يزيد في خوف النَّبيِّ ، واضطرابه .

والنَّصُّ يذكر اضطراب الرَّسول ﷺ ، وفزعه من هذه الحادثة ، فقد رجع إلى خديجة ، وفؤادُه يرجُف ، وبوادره تضطرب ، وهو خائفٌ مروَّعٌ .

ولجأ إلى زوجته الصَّالحة ؛ وهو على هذه الحالة من الفزع ، والاضطراب ، والخوف ، وطلب منها أن تغطِّيه بالثِّياب ، وتلفَّه بها ، شأن من أصابته رِعدةٌ من البرد . . والمفاجأة المذهلة تنعكس على الجسم بآثارٍ كثيرةٍ ، فزمَّله أهله . . حتَّى ذهب عنه الرَّوع ، وعاد إلى طبيعته .

وهنا قال لخديجة : يا خديجة ! مالي؟ يسأل : ماذا أصابني؟ ما هذا الَّذي رأيت؟ وما هذا الَّذي سمعت؟ وصارحها بحقيقة موقفه : أنه أصبح يخشىٰ على نفسه ـ إن عاوده هذا الَّذي جاءه ـ أن يمرض ، أو يموت . فأجابته خديجة تطمئنه بأنَّه لن يصيبه مكروهٌ ، وأنَّ الله لن يخذلَه أبداً ، ولن يخزيه .

إنَّ الجسم البشريَّ بتركيبه الحاليِّ لا يستطيع أن يتحمَّل رؤية المَلَكِ ، لا سيَّما إن كان على صورته الَّتي خلقه الله عليها إلا بعناءٍ ، وشدَّةٍ ، وجَهْدٍ ، ومشقَّةٍ ، فما القول إذا رافق الرُّؤية غطٌّ ، وضمٌّ ، وعصرٌ حتَّى بلغ منه الجَهْد؟ وما القول إذا تكرَّر ذلك ثلاث مرَّاتٍ؟

ليس من شكٍّ في أنَّ هذه الحادثة أثَّرت على جسد الرَّسول تأثيراً واضحاً ، وقد بقي ذاك الأثر جلياً في صحَّته ، وشعوره بالبرد ، ولون وجهه مدَّةً غير قصيرةٍ . . بقي حتَّى وصل ﷺ إلى بيته . والمسافة بين غار حراء وبيته ﷺ مسافةٌ غير قليلةٍ ، وقطْعُها مشياً على الأقدام يستغرق وقتاً طويلاً .

ولمَّا رأته خديجة ، وسمعت طلبه أن يزمِّلوه ؛ سارعت بلهفةٍ مشكورةٍ ، وعنايةٍ تامَّةٍ، واهتمامٍ كريمٍ، سارعت إلى تلبية طلبه تزمِّله، وتغطِّيه، وتدفئه.

قال العيني: [الحكمة في غطِّه ثلاث مرَّات ؛ ليُظهِر في ذلك الشِّدَّة ، والاجتهاد في الأمور وأن يأخذ الكتاب بقوَّة ، ويترك الأناة ، فإنَّه أمرٌ ليس بالهوينى ، وكرَّرهُ ثلاثاً مبالغةً في التثبُّت][1].

واستنتج بعض أهل العلم: أنَّ هذا الغطَّ المتكرِّر يدلُّ على الحضِّ على التَّعليم ، ولو كان فيه مشقَّةٌ[1].

إنَّ موقف أمِّ المؤمنين السَّيدة خديجة لم يقتصر على العناية بمطالب زوجها ؛ الَّتي طلبها من تغطية له بالثِّياب ، بل تلقَّته بالبشر ، وخفَّفت عنه ما يُعاني ، وانتظرت حتَّى ذهب عنه الرَّوع ، وجاوزت ذلك إلى أمرين اثنين:

أمَّا أوَّلهما ؛ فهو إدراك سنَّةٍ من سنن الله في خلقه ، وهي أنَّ من كان متَّصفاً بالصِّفات الكريمة ؛ الَّتي كان يتحلَّى بها زوجها العظيم لا يمكن أن يُضيِّعه الله ، ولا أن يُخزيه ، ثمَّ بدأت تذكر له هذه الصِّفات من صلة الرَّحم ، وصدق الحديث ، وقِرى الضيف ، ومساعدة الفقراء ، والمعوزين. . .

وأمَّا ثانيهما ؛ فهو إدراكها : أنَّ هذا الحادث ؛ الَّذي قصَّه عليها زوجها بدايةٌ لدينٍ جديدٍ عظيمٍ ، يخالف ما كان عليه قومُها ، وأرادت أن تتأكَّد من هذا ، وأن تُقنع زوجها به بأن تستشير عالماً خبيراً موثوقاً ، ولكن أنَّىٰ تجده ؛ وأهل مكَّة مشركون ليس فيهم مَنْ يصلح أن يكون ذاك المستشار الأمين ، ويبدو أنَّها تذكَّرت ابن عمٍّ لها ، ترك دين آبائه ، ودخل في دين النَّصرانيَّة ، على يد بعض الرهبان الذين لم تدخل عليهم الشوائب التي دخلت النصرانية فحرَّفتها. . . فاصطحبت زوجها ، وانطلقت به حتَّى أتت ابن عمِّها هذا ورقة بن نوفل ، فأخبره: أنَّ هذا هو النَّاموس الذي أُنزل على موسىٰ. . وتحقَّق

---

(١) عمدة القاري للعيني ١/ ٦١.

لورقة ما كان وقف عليه في الكتب من بشارة الأنبياء السَّابقين بنبيٍّ يأتي ، يتَّصف بكذا ، وكذا من الصِّفات .

سندرس كلام ورقة في موضع آخر ، ولكنَّ الَّذي يعنينا هنا هو موقف خديجة ، وبعدُ نظرها ، وليس من شكٍّ في أنَّ لقاء النَّبيِّ ﷺ ورقة ، ومحاورته له أدخلا على نفسه الطُّمأنينة ، والثِّقة ، وكان ذلك كلُّه من بركة رأي السَّيدة خديجة رضي الله عنها ، وأرضاها .

ترجمة ورقة :

وفي هذا الحديث ترجمةٌ موجزةٌ لورقةَ بن نوفل ، وذكرٌ لثقافته الواسعة ، فقد جاء في رواية البخاري: أنَّه كان يكتب الكتاب العبرانيَّ ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانيَّة ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ ، وفي رواية مسلمٍ : أنَّه كان يكتب الكتاب العربيَّ ؛ أي : أن الرَّجل تمكَّن من معرفة النَّصرانيَّة ومن اللُّغتين ، حتَّى استطاع أن يكتب فيهما ، وأن يستوعب ما جاء في الإنجيل مترجماً ، أو باللُّغة العبرانيَّة[1] وكان شاعراً ، وقد ذكر أصحاب السِّير شعراً له ، والله أعلم بصحَّة ذلك .

فمن ذلك قوله[2]:

فَإِنْ يَكُ حَقّاً يَا خَدِيْجَةُ فَاعْلَمِي ... حَدِيثُكِ إِيَّانا فَأَحْمَدُ مُرْسَلُ

وما أظنُّ ذلك إلا منحولاً .

ومن الشِّعر الَّذي نسبوه له قولُه:

لَقَدْ نَصَحْتُ لأَقْوَامٍ وَقُلْتُ لَهُمْ ... أَنَا النَّذِيْرُ فَلاَ يَغْرُرْكُمُ أَحَدُ

لاَ تَعْبُدُنَّ إِلٰهاً غَيْرَ خَالِقِكُمْ ... فَإِنْ دَعَوْكُمْ فَقُولُوا بَيْنَنَا جَدَدُ

* * *

---

(١) انظر فتح الباري ١/ ٢٥ .

(٢) عمدة القاري للعيني ١/ ٦٤ .

لا شَـيْءَ مِمَّـا تَـرَىٰ تَبْقَـى بَشَـاشَتُـهُ يَبْقَـىٰ الإِلٰـهُ وَيَفْنَـىٰ المَـالُ وَالـوَلَـدُ
لَـمْ تُغْـنِ عَـنْ هُـرْمُـزٍ يَـوْمَـاً خَـزَائِنُـهُ والخُلدَ قَدْ جَاوَلَتْ عَادٌ فَمَا خَلَدُوا
وَلاَ سُلَيْمَـانَ إِذْ تَجْـرِي الـرِّيَـاحُ لَـهُ وَالإِنْـسُ وَالْجِـنُّ فِيْمَـا بَيْنَهَـا بُـرُدُ
أيـنَ الملـوكُ الَّتـي كَـانَـتْ لِعـزتهـا مِـن كُـل أوب إليهـا وَافِـد يَفِـدُ
حَـوْضٌ هُنَـالِـكَ مَـوْرُودٌ بِـلاَ كَـدَرٍ لاَ بُـدَّ مِـنْ وِرْدِه يَـوْمَـاً كَمَـا وَرَدُوا

وهو منحولٌ أيضاً فيما نظنُّ ، والله أعلم .

وقال ابن القيِّم: [وأسلم القسُّ ورقة بن نوفل ، وتمنَّى أن يكون جَذَعاً إذ يُخرِج رسولَ اللهِ قومُه .

وفي جامع التِّرمذيِّ : أنَّ رسول الله ﷺ رآه في المنام في هيئةٍ حسنةٍ . وفي حديثٍ آخر : أنه رآه في ثيابٍ بياضٍ][1] .

وأخرج الحاكم قوله ﷺ: «لا تسبُّوا ورقة فإنِّي رأيت له جنَّةً أو جنَّتين»[2] وصحَّحه على شرط الشَّيخين .

خديجة ، وعائشة :

تروي عائشة في هذا الحديث ما صنعته خديجة من تقوية قلب النَّبيِّ ﷺ ؛ لتلقِّي ما أنزل الله عليه ، فقال لها: «لقد خشيتُ على نفسي» فقالت: كلاَّ والله! لا يخزيك الله أبداً . . . ، وذكرتْ خصاله الحميدة ، وتوجَّهت به إلى ورقة .

وممَّا لفت نظري في هذا الحديث الموقفُ الموضوعيُّ المنصف الَّذي وقفت فيه عائشة راوية هذا الحديث من خديجة ، وموقفها العظيم . . وعائشة كانت تغار منها مع أنَّهما لم تجتمعا ؛ لأنَّها كانت تعلم مكانة خديجة في قلب الرَّسول ﷺ ، وقد حاولت مرَّةً أن تذكر بعض المزايا ، والصِّفات الَّتي تفوق بها خديجةَ ، فما كان من الرَّسول الوفيِّ إلا أن ذكر فضل خديجة ، وعظيم مكانتها .

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٢١ ط دمشق .
(٢) المستدرك ٢/ ٦٠٩ .

قال ابن حجر في «الإصابة»: [وقد أثنىٰ النَّبيُّ ﷺ على خديجة ما لم يُثْنِ على غيرها، وذلك في حديث عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتَّى يذكر خديجة، فيحسن الثَّناء عليها، فذكرها يوماً من الأيَّام، فأخذتني الغَيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها. فغضب، ثمَّ قال: «لا والله! ما أبدلني الله خيراً منها: آمنت بي؛ إذ كفر النَّاس، وصدَّقتني؛ إذ كذَّبني النَّاس، وواستني بمالها؛ إذ حرمني النَّاس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النِّساء». قالت عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بعدها بِسُبَّةٍ أبداً][1].

ومع ذلك فقد ذكرتْ في هذا الحديث فضلَها وعظيمَ عقلها.

نعم يصوِّر هذا الحديث خديجة مهتمَّة أعظم الاهتمام بالرَّسول الكريم، تعُدُّ قضيته قضيَّتها.. ويبدو أنَّها كانت أوَّل من آمن بالله، ورسوله، وصدَّقت بما جاء به، فخفَّف الله بذلك عن رسول الله ﷺ. قال ابن حجر: [فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من الردِّ عليه، فيرجع إليها إلاَّ تثبِّته، وتهوِّن عليه أمر النَّاس][2].

وهذا التَّعاون بين الزَّوجين هو الَّذي يُعطي الحياة قيمتها، ويُبرز الهدف السَّامي من أهداف الزَّواج، ويجعل الزَّوج يُحِسُّ بالسَّعادة، ويثبِّته على الحقِّ، ويدفعه إلى تحقيق ما يتطلَّع إليه.

إنَّ الَّذي يقف في الأزمات وحيداً، ويواجه المشكلات منفرداً إنسانٌ شقيٌّ، لا يعرف طعم السَّعادة، ويؤلمه أن يُحِسَّ: أنَّه في وادٍ، وأنَّ زوجته في وادٍ آخر؛ مع أنَّها أقربُ النَّاس إليه.

وقد يؤثِّر عليه هذا الوضع، فيجعله يضعُف، ويُخفِق، وينهزم؛ لأنَّ إحساس الإنسان بالتفرُّد يضاعف عليه الألم، يتألَّم من قسوة الأزمة، ويتألَّم مرَّةً أخرىٰ لخذلان النَّاس له، وتركهم له وحيداً يواجه ما يواجه.

---

(١) «الإصابة» ٤/ ٢٧٥.

(٢) «الإصابة» ٤/ ٢٧٣.

إنَّ الزَّوجة هي أولىٰ الناس بمساعدة زوجها عندما يقع في أزمةٍ ، تقف معه ، وتمدُّه بالرَّأي ، والمشورة ، وتخفِّف عنه العناء ، وتزيل عنه الخوف ، وتقيه من اليأس.

ولقد كانت خديجة ـ رضي الله عنها ـ الزوجة الصَّالحة المثاليَّة في كلِّ حينٍ ، ولا سيَّما عندما واجه الرَّسول ﷺ ما واجه في غار حراء ، وعاد إلى بيته ترجف بوادره ، فقال: زمِّلوني! زمِّلوني! . . . فزمَّلته ، واعتنت به ؛ حتَّى ذهب عنه الرَّوع ، ثمَّ قال لخديجة: «أي: خديجة! مالي؟ ما الَّذي أصابني. . والله! لقد خشيتُ على نفسي» قالتْ له خديجة: كلاَّ ، أبشر! فوالله لا يخزيك الله أبداً! والله! إنك لتصل الرَّحم ، وتصدقُ الحديث ، وتحملُ الكلَّ ، وتكسبُ المعدوم ، وتقري الضَّيف ، وتعينُ على نوائب الحقِّ.

إنَّ هذا القول ليدلُّ على مدىٰ ثقتها بزوجها. . . لقد نفت السَّيدة خديجة أن يخزيه الله ، وأقسمت على ذلك [ثمَّ استدلت على ما أقسمت عليه من نفي ذلك أبداً بأمرٍ استقرائيٍّ ، ووصفته بأصول مكارم الأخلاق؛ لأنَّ الإحسان إمَّا إلى الأقارب ، أو إلى الأجانب ، وإما بالبدن ، أو بالمال ، وإما على مَنْ يستقلُّ بأمره ، أو من لا يستقلُّ ، وذلك كلُّه مجموعٌ فيما وصفته به][1].

ومن الصِّفات الَّتي وصفته بها : قِرى الضيف ، والإعانة على نوائب الحقِّ ، قال ابن حجر: [وقولها : وتعين على نوائب الحقِّ كلمة جامعةٌ لأفراد ما تقدَّم ولِمَا لم يتقدَّم][2].

وهذه الأخلاق كانت فيه ﷺ قبل أن يكرمه الله بالنُّبوَّة ، ولمَّا بعثه الله بشيراً ، ونذيراً ؛ دعا إلى هذه الأخلاق ، وأصَّلها ، وكيف لا يكون كذلك ؛

---

(١) «فتح الباري» ١/ ٢٤.
(٢) «فتح الباري» ١/ ٢٥.

وهو ﷺ إنَّما بُعِث ليتمِّم مكارم الأخلاق[1].

وهذه الأخلاق كلُّها اجتماعيَّةٌ، تعود على مَنْ يتعامل معهم، ويعاشرهم بالخير الوفير، فتترك فيهم الإعجاب، والمحبَّة، والتَّعلُّق، وقد بدأتها خديجة بدائرة الأسرة، والعشيرة، فذكرت: أنَّه يصل الرَّحم، وصلة الرَّحم مَنْقَبةٌ عظيمةٌ، تجعل البركة في العمر، ومن لم يكن فيه خيرٌ لأهله لم يكن فيه خيرٌ للآخرين.

ثمَّ ذكرت دائرةً أوسع... يقري الضَّيف، ويغيث الملهوف، ويقف إلى جانب الذين تنزل بهم النَّوائب، وتحلُّ بساحتهم المصائب، وينفق، ويعطي، ويعين الضُّعفاء الَّذين لا يستطيعون تصريف أمورهم بأنفسهم، وهذا الَّذي عنت بقولها: (الكَلَّ) والكَلُّ: هو الذي لا يستقلُّ بأمره ويكون عبئاً على مَنْ يحمله، كما ذكرنا آنفاً.

وذكرتْ صفةً كريمةً، وهي صدق الحديث، فهو الصَّادق الأمين، والصِّدق رأس الفضائل، وهو من أشرف الخصال، وهو يجعل صاحبه ثقةً محبوباً عند النَّاس، وينتهي به إلى الجنَّة.

إنَّ في صنيع خديجة دروساً عدَّةً:

١ ـ منها: جواز أن يُذكر الرَّجل بما فيه من الخير؛ إذا كان ذلك لا يضرُّه.

٢ ـ ومنها: أنَّ مكارم الأخلاق، والصَّدقة، وعون المحتاجين ممَّا يدفع عن المتَّصف بها الخزيَ، ومصارعَ السُّوء.

٣ ـ ومنها: استحباب تأنيس مَنْ نزل به أمرٌ بذكر تيسيره عليه، وتهوينه لديه.

---

(١) الحديث: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» حديثٌ صحيحٌ رواه مالك في الموطَّأ ٢/ ٩٠٤، والبخاريُّ في الأدب المفرد برقم ٢٧٣، وأحمد في المسند ٢/ ٣١٨، والحاكم في المستدرك ٢/ ٦١٣، والخرائطيُّ في مكارم الأخلاق ص ٢.

٤ ـ ومنها: أنَّ مَنْ نزل به أمر استُحبَّ له أن يُطْلِع عليه مَنْ يثق بنصيحته، وصحَّة رأيه.

٥ ـ ومنها: أنَّ المرأة الفاضلة العاقلة أهلٌ للمشورة، وإبداء الرَّأي، وأمَّا ما يزعمه بعض الناس من أنَّ المرأة لا تستشار؛ فهذا على إطلاقه خطأ.

وما جاء من قولهم: (شاوروهنَّ، وخالفوهنَّ) فباطلٌ، لا أصل له[1].

وقد أثبتت خديجة رضي الله عنها بهذا الكلام الجامع الجميل كمالَ عَقْلِها، وجزالةَ رأيها، وقوَّةَ نفسها، وثباتَ قلبها، وعِظَمَ فقهها.

وسيِّدنا رسولُ الله هو كما وصفته خديجة.. ولا عَجَبَ في ذلك فهو قد أعدَّه الله لحمل رسالة الإسلام.. والرُّسل مُصْطَفَوْنَ، يختارهم الله، ويصطنعهم، وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، ولا شكَّ في أنَّ نبينا هو أفضلهم، وقد ذكر ﷺ في حديثٍ أخرجه مسلمٌ، والتِّرمذيُّ: أنه من صفوة الخلق، فقال: «إنَّ الله اصطفىٰ كِنانة من ولد إسماعيل، واصطفىٰ قريشاً من كنانة، واصطفىٰ من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[2].

فهو خيارٌ مِنْ خيارٍ، ولقد زادت سيرته حسناً بعد النُّبوَّة، فصلَّىٰ الله، وسلَّم، وبارك عليه.

في هذا الحديث كلامٌ لورقةَ بن نوفل جديرٌ بالتأمُّل، وقد سبق أنْ عرَّفت بورقة تعريفاً موجزاً، وأود أن نقف مع كلامه هذا وقفةً نتبيّن فيها بعض الحقائق.

قال ورقة لرسول الله بعد أن أخبره خبر ما رآه في الغار: هذا النَّاموسُ الَّذي أُنزِل على موسىٰ ﷺ يا ليتني فيها جَذَعاً! يا ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك!

قال رسولُ الله ﷺ: «أومخرجيَّ هم؟» قال ورقةُ: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئت به إلا عُودي. وإن يدركني يومُك؛ أنصرْكَ نصراً مؤزَّراً.

---

(١) انظر مختصر المقاصد رقم ٥٥٠.

(٢) مسلمٌ ٧/ ٥٨ برقم ٢٢٧٦ والتِّرمذيُّ ٤/ ٢٩٢ برقم ٣٦٠٦.

قوله: (هذا النَّاموس الَّذي أُنزل على موسىٰ ﷺ) يريد: أنَّ هذا الَّذي قابلته في الغار، وكلَّمك هو النَّاموس الَّذي أنزل على موسىٰ، والنَّاموس في لغة العرب: صاحب السِّرِّ، وهو هنا جبريل عليه السَّلام. وجبريل أمين الوحي، كان ينزل بالوحي على أنبياء الله: إبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، وغيرهم، وفي ذلك طمأنينةٌ للنَّبيِّ ﷺ، وبشارةٌ له بالنُّبُوَّة.

وقوله: (يا ليتني فيها جَذَعاً! يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك!).

نصبت كلمة (جذعاً) على أنَّها خبر (كان) المقدَّرة، أي: يا ليتني أكون فيها جَذَعاً[1]. والجَذَع: الصَّغير من الضأن، والإبل، وغيرهما، يتمنَّىٰ أن يكون عند ظهور الدَّعوة شاباً؛ ليشارك في الدَّعوة إلى الإسلام؛ لأنَّ في الشباب قوَّةً لا توجد عند الشُّيوخ المسنين، ويبدو أنَّ هذه الصُّورة (الجذع) تعاورها الشُّعراء، وقد وردت في شعر قطري بن الفجاءة:

لَا يَـرْكَنَـنْ أَحَـدٌ إِلـى الإِحْجَـام ... يَـوْمَ الـوَغَـىٰ مُتَخَـوِّفـاً لِحِمَـامِ
فَلَقَـدْ أُرَانِـي لِلـرِّمَـاحِ دَرِيْئَـةً ... مِـنْ عَـنْ يَمِيْنِـي تَـارَةً وَأَمَـامِـي
حَتَّى خَضَبْتُ بِمَا تَحَدَّرَ مِنْ دَمِي ... أَكْنَـافَ سَـرْجِـي أَوْ عِنَـانَ لِجَـامِـي
ثُمَّ انْصَرَفْتُ وَقَدْ أَصَبْتُ وَلَمْ أُصِبْ ... جَـذَعَ البَصِيْـرَةِ قَـارِحَ الإِقْـدَامِ

وقد عبَّر ورقة بتمنِّيه الأمر المستحيل، وهو أن يكون شاباً عند دعوة الرَّسول قومَه إلى الإسلام، عبَّر بتمنِّيه هذا عن إيمانه، ورغبته في الخير، وأنَّ هذا الحادث الَّذي أخبره به صحيحٌ، لا شكَّ فيه، وهذا يدلُّ على تصديقه القويِّ.

وقد فهم بعض العلماء من هذا الحديث: أنَّه يجوز تمنِّي المستحيل؛ إذا كان في أمرٍ محمودٍ من الأمور الَّتي يدعو إليها الشَّرْعُ، بل قد يكون له في ذلك أجرُ مَنْ كان قائماً بهذا الأمر المحمود.

كما لو تمنَّى رجلٌ فقيرٌ أن يكون له من المال مِثْلُ ما لإنسانٍ كريمٍ غنيٍّ،

---

(١) قال النوويُّ: وقال القاضي: الظاهر عندي: أنَّه منصوب على الحال، وخبر ليت قول: (فيها) وهذا الذي اختاره القاضي هو الصَّحيح (٢/ ٢٠٤).

ينفق الكثير في سبيل الله. فهما في الأجر سواءٌ. عن أبي كبشة الأنماريِّ: أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّما الدُّنيا لأربعة نفر: عبدٍ رزقه الله مالاً، وعلماً، فهو يتَّقي فيه ربَّه، ويصلُ فيه رحمه، ويعلمُ للهِ فيه حقّاً، فهذا بأفضل المنازل، وعبدٍ رزقه الله علماً، ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النِّيَّة، يقول: لو أنَّ لي مالاً؛ لعملت بعمل فلان، فهو بنيَّته، فأجرهما سواءٌ...» رواه التِّرمذيُّ، وابن ماجه[1].

وفي قول ورقة دليلٌ على قيمة الشَّباب، وأثره في نصرة الدَّعوة، والذَّبِّ عن حياضها، والتَّمكين لها، ثمَّ قال بعد ذلك: يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك! لقد تمنَّى مرَّةً أخرىٰ أن يكون حيّاً حين يخرجه قومه؛ لينصره بما يستطيع من فعل، أو قولٍ، وقد أراد بالتمنِّي الثَّاني أن يُظهر له مدى رغبته في نُصرة هذا الدِّين الجديد، الَّذي قرأ عنه ورقة في الكتب السَّابقة، وأراد أن يخبره بأنَّه عندما يواجه قومه بدعوته؛ سيلقى منهم التَّكذيب، والتَّعذيب، والإيذاء، والاستهزاء، والإخراج من الأوطان، فاستغرب الرَّسول ﷺ ذلك، واستبعد أن يقع؛ لأنَّه لم يكن فيه سببٌ يقتضي الإخراج، لما اشتمل ﷺ عليه من مكارم الأخلاق؛ الَّتي لخَّصتها خديجة رضي الله عنها، ولما يعلم من احترامهم له، وتوقيرهم إيَّاه، حتَّى كانوا يدعونه بالأمين، وكانوا يحكِّمونه فيما شجر بينهم، وينزلون على حكمه، كما حصل معهم في نزاعهم فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه عند بنائهم الكعبة.

فبيَّن له ورقة: أنَّ العلَّة في ذلك مجيئه بدين يدعوهم إلى نبذ الأصنام، وتوحيد الله، وترك ما وجدوا عليه آباءهم، فألفوه، وأصبح من الصَّعب عليهم مفارقته، ويبدو: أنَّ ورقة قد قرأ في الكتب: أنَّهم لا يجيبونه إلى ذلك، وأنَّه سَيُنَابِذُهُمْ، وسيعادونه بسبب ذلك، فأخبره بذلك؛ كيلا يُفاجأ به عندما يلقاه.

---

(١) انظر جامع التِّرمذيِّ برقم ٢٣٢٥ وانظر صحيح التِّرمذيِّ للألبانيِّ ٢ برقم ١٨٩٤ وقال: صحيحٌ. وابن ماجه رقم ٤٢٢٨.

هذا وقد عرف رسولُ الله ذلك فيما بعدُ حقيقةً ملموسةً واقعةً عندما بدأ يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وإلى مبادئ هذا الدِّين العظيم، فلقي منهم الإعراض، والمعاندة، والاتِّهام بالجنون، والكهانة، والشِّعر، والاستهزاءَ، والإيذاءَ، ونزلت عليه آياتٌ كريماتٌ تقصُّ أخبار الأنبياء السَّابقين مع أقوامهم، وكيف لاقوا العداوة، والمحاربة، والضَّرب، والإهانة، والسُّخرية، والقتل، ولكنَّ العاقبة كانت دائماً للحقِّ، والتقوىٰ.

وهذا سبيل الدُّعاة في كلِّ زمانٍ، ومكانٍ، لا بُدَّ من أن يلقوا من أهل الشِّرك، والشَّرِّ المعارضة، والمعاندة، والمقاتلة، والمعاداة، والاتهاماتِ الباطلة الكثيرة.

وكلام ورقة تأييدٌ قويٌّ لصحَّة نبوَّة محمَّدٍ ﷺ الَّتي أخبرت عنها الكتب السَّابقة الَّتي وقف عليها ورقة قبل أن ينالها التَّحريف، والتبديل، والَّتي قد جاء في القرآن الكريم الإشارة إليها من نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. ومن نحو قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ ـ ٨٢]. ومن نحو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]. ومن نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٦ ـ ١٤٧].

أُميَّة النَّبيِّ ﷺ:

أريد أن أقف وقفةً يسيرةً أمام قوله ﷺ: «ما أنا بقارئ» قال ذلك مرَّاتٍ ثلاثاً جواباً على طلب المَلَك: اقرأ.

إنَّ هذا الحديث نصٌّ قاطعٌ على أنَّه ﷺ كان أميّاً ، لا يقرأ ، ولا يكتب ، وأميَّتُه ﷺ شرفٌ ، ومعجزةٌ بالغةٌ ؛ إذ أنَّ هذا الأميَّ جاء قومَه ، والعالم كلَّه بكتابٍ كريمٍ ، تضمَّنت آياتُه عقيدةً صحيحةً ، وتشريعاً محكماً ، وتوجيهاً قويماً ، كتابٍ فيه الحلولُ لمشكلاتِ البشرِ في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ ، ويحقِّق السَّعادة للنَّاس ، ويقيم المجتمع المثاليَّ الرَّحيم المتعاون . وقد دلَّت على أميَّته ﷺ آياتٌ كريماتٌ من كتاب الله ، وأحاديث صحيحةٌ عن رسول الله ﷺ ، ووقائع التَّاريخ[1] .

أمَّا الآيات ؛ فمنها قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] فهذه الآية تقرِّر : أنَّه ﷺ كان لا يقرأ ، ولا يكتب ، ولو كان يقرأ ، ويكتب ؛ لارتاب المبطلون ، وقالوا : إنَّ الَّذي أخبرتْ عنه الكتب أنه سيكون النَّبيَّ ، أميٌّ ، لا يقرأ ، ولا يكتب ، وهذا قارئ كاتبٌ ، فليس هو إذاً النَّبيُّ الموعود ، ولَقَالَ أولئك المبطلون : إنَّه قرأ ما في الكتب المختلفة ، واطَّلع على كتب الدِّيانات السَّابقة ، واقتبس منها ، وجاء يتلوها .

ويعجبني ما قاله الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية ، قال رحمه الله[2] : [لقد لبثتَ في قومك يا محمَّد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عُمُراً لا تقرأ كتاباً ، ولا تحسن الكتابة ، بل كلُّ أحدٍ من قومك ، وغيرهم يعرف : أنَّك رجلٌ أمِّيٌّ ، لا تقرأ ، ولا تكتب ، وهكذا صفته في الكتب المتقدِّمة كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ، وهكذا كان

---

(١) انظر في أميَّة النَّبيِّ ﷺ بحثاً قيماً كتبه محمد بن علي بن طولون في كتابه «مرشد المحتار إلى خصائص المختار» من ص١٤٧ حتى ١٥٤ وانظر كتاب الشَّيخ ابن حجر قاضي قطر السابق في هذا الموضوع وعنوانه : «الرد الشافي الوافر، على من نفي أمية سيد الأوائل والأواخر» . وانظر البحث الذي كتبه الآلوسي عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] ورسالة العلاَّمة الشَّيخ سعدي ياسين، وعنوانها : الدَّليل القويُّ على أميَّة النَّبيِّ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٧ .

رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدِّين لا يحسن الكتابة ، ولا يخطُّ سطراً ولا حرفاً بيده ، بل كان له كُتَّابٌ يكتبون بين يديه الوحي ، والرَّسائل إلى الأقاليم].

ثم خطَّأ مَنْ زعم من متأخِّري الفقهاء كأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي[1] المُتوفى ٤٧٤ هـ: أنَّه ﷺ كتب يوم الحديبية.

وذلك: أنَّ سببَ خطئهم هذا غلطُهم في فهم عبارةٍ وردت في قصَّة الحديبية: [أنه كتب: هذا ما قاضى عليه محمَّد بن عبد الله] والعبارة الموهمة تفسِّرها الرِّواية الأخرى ، والعبارة نفسها لو تأمَّلها الإنسان ؛ لوجد فيها الدَّليل على خطأ الباجي ، ففيها: [ثمَّ قال لعليٍّ: امح رسول الله. قال عليٌّ: لا والله لا أمحوك أبداً. فأخذ رسولُ الله ﷺ الكتاب ـ وليس يحسن يكتب ـ فكتب هذا ما قاضى. . .][2] فقول الرَّاوي: (وليس يحسن الكتابة) دليلٌ على أنَّ معنى (كتب) أمرٌ بالكتابة ، كما تقول: بنى الأميرُ القصر ، أي: أمر ببنائه.

ورواية مسلمٍ تفسرها ، وهي: [قال لعليٍّ: اكتب: هذا ما قاضى عليه محمَّدٌ رسول الله. فقال له المشركون: لو نعلم أنَّك رسول الله ؛ تابعناك. ولكن اكتب: محمَّد بن عبد الله. فأمر عليّاً أن يَمْحَاها ، فقال عليٌّ: لا والله! لا أَمْحَاها. فقال رسول الله ﷺ: «أرني مكانها ، فأراه مكانها ، فمحاها ، وكتب ابن عبد الله][3]. أي: أمر بكتابة (ابن عبد الله) كما يقال: رجم ماعزاً ، وقطع السَّارق ، أي: أمر بذلك. ثمَّ قال ابن كثير[4]: [ولهذا اشتدَّ النَّكير من فقهاء المشرق ، والمغرب على مَنْ قال بقول الباجي ، وتبرؤوا منه ، وأنشدوا

---

(١) انظر قصَّة أبي الوليد في الفتح ٧/ ٥٠٣ وفي شرح مسلم للنَّوويِّ ١٢/ ١٣٧ وتذكرة الحفَّاظ ٢/ ٧٤٢ و٣/ ١١٧٨ وسير أعلام النُّبلاء ١٨/ ٥٤٠ وتلخيص الحبير ٣/ ١٢٦ وترتيب المدارك ٤/ ٨٠٥ وطبقات المفسِّرين للدَّاودي ١/ ٢٠٢ والتَّراتيب الإداريَّة ١/ ١٧٣ وتفسير ابن كثير ٣/ ٤١٧ والقرطبي ١٣/ ٣٥٣ وفيض القدير ٤/ ٢٥٥. ومرشد المحتار إلى خصائص المختار لمحمَّد بن علي بن طولون ١٤٧ ـ ١٥٤.

(٢) فتح الباري ٥/ ٤٤٩.

(٣) صحيح مسلم برقم ١٧٨٣.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٧.

في ذلك أقوالاً ، وخطبوا به في محافلهم ، وإنَّما أراد الرَّجل فيما يظهر عنه : أنَّه كتب ذلك على وجه المعجزة لا أنَّه كان يحسن الكتابة . . وما أورده بعضهم من الحديث : أنَّه لم يمت ﷺ حتَّى تعلَّم الكتابة ؛ فضعيفٌ[1] لا أصل له] .

قال القرطبيُّ : [هذا هو الصَّحيح في الباب : أنَّه ما كتب ولا حرفاً واحداً ، وإنَّما أمر مَنْ يكتب ، وكذلك ما قرأ ، ولا تهجَّى][2] .

ومن الآيات الَّتي تدل على أمِّيَّته قوله سبحانه : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٦ ـ ١٥٧] ومنها قوله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] ويقول ﷺ : «إنَّا أمَّةٌ أمِّيَّةٌ لا نكتب ، ولا نحسب»[3] .

وقام في الأزمنة الأخيرة مستشرقون ، وقساوسةٌ يطعنون في الإسلام ، ودينه ، فمنهم المستشرق «البرنس كاثياني»[4] الَّذي زعم : أنَّه ﷺ كان يدَّعي الأميَّة ، ويخفي عن قومه معرفته بالقراءة والكتابة ، ومنهم القسُّ البروتستانتيُّ «نلسن الدَّانمركيُّ» الَّذي نشر رسالةً عنوانها «أصدق الأقاويل على صحَّة التوراة والأناجيل» ويشكِّك فيها بالقرآن ، ويتَّهم النَّبيَّ ﷺ بتهمٍ باطلةٍ ، وقد ردَّ عليه عالمٌ من أعظم علماء القرن الماضي وهو العلاَّمة سعدي ياسين في كتابٍ عنوانه : «البرهان على سلامة القرآن من الزيادة والنُّقصان» وأتبعه برسالةٍ عنوانها : «الدَّليل القويُّ على أمِّيَّة النَّبيِّ» أجزل الله مثوبته ، وذكر : أنَّ قريشاً كانت تعاديه ، ولم ينقل أنَّهم ردُّوا عليه عندما تلا عليهم الآية : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا

---

(١) أقول : بل موضوع لا أصل له .

(٢) تفسير القرطبي ١٣/ ٣٥٣ .

(٣) البخاريُّ ٤ برقم ١٩١٣ ، ومسلم ٢ ص٧٦١ برقم ١٠٨٠ الرقم الخاص ١٥ ، وأبو داود ٢/ برقم ٢٣١٩ ، والنَّسائيُّ ٤ ص ١٣٩ ، وأحمد ٢/ ٤٢ ـ ٥٢ ـ ١٢٢ ـ ١٢٩ .

(٤) تاريخ العرب ١/ ١١٧ لمحمَّد أسعد طلس ، وهو كتاب سيئٌ جداً ، محشوٌ بالشُّكوك والنَّزعة القوميَّة .

مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ وإذا تعلَّم في الجاهليَّة فلا بدَّ أن يكون معلمه مشركاً ، فلماذا كتم هذا المشرك السِّرَّ؟ ولم يرحل عن بلده إلا مع نفر من قومه ، وكانت رحلته تجاريَّةً لا يمكنه أن يتلقى فيها شيئاً من مبادئ القراءة والكتابة. ولم يره أحدٌ ممسكاً بورقةٍ ، ولا قلمٍ.

وتعلُّم الكتابة ، والقراءة في بيئةٍ محصورةٍ أمرٌ لا يمكن أن يخفىٰ على أبناء تلك البيئة ، لا سيَّما وقد عادوه ، وقاطعوه ، واتَّهَمُوهُ بالكهانة ، والجنون ، والسِّحر ، فلماذا لم يكشفوا حقيقته الَّتي تردُّ قوله[1].

إنَّ أمِّيَّته ﷺ أمرٌ مقطوعٌ به ، وهو ما أجمع عليه أهل السُّنَّة ، أمَّا أولئك المغفَّلون ، والمشكِّكون ؛ فلا عبرة بما يقولون.

ومن أعجب ما سمعت في هذا: أنَّ الدُّكتور محمَّد حميد الله فَهِمَ من قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾: أنَّه أمرٌ بتعلُّم القراءة ، وتعلَّمها[2] ، وظنَّ: أنه جاء بشيءٍ جديدٍ. قلت: إنَّ الأعمى يقرأ ما يحفظ ، أو ما يُلقىٰ عليه ، وهو لا يقرأ من كتاب ، ولا يعرف الكتابة ، وكذلك العوامُّ الأمِّيُّون يقرؤون في صلواتهم ، وهم لا يخطُّون حرفاً.

* * *

وقفنا وقفاتٍ تأمُّليَّةً في هذا الحديث الجميل ، وأريد أن أختم كلامي في هذا الحديث بكلمتين: كلمةٍ موجزةٍ عن طرق الوحي ، وكلمةٍ في معاني الحديث ، وأسلوبه.

طـرق الوحــي:

أمَّا طرق الوحي ؛ فهي أربعةٌ ، وقد ذكرت السَّيِّدة عائشة في هذا الحديث طريقين من طرق الوحي:

---

(١) وواضحٌ الفرق بين رأي الباجي المخطئ وبين كلام المفترين من النَّصارى الَّذين يدَّعون كذباً وزوراً: أنَّه كان قارئاً قبل البعثة ، قاتلهم الله أنَّى يؤفكون.

(٢) وقد سمعت ذلك منه أنا بنفسي عندما جاء إلى جامعة الرِّياض.

١ ـ أوَّلهما: أن يكون الوحي بالرُّؤيا الصَّادقة ، وقد تحدَّثنا عن ذلك بما فيه الكفاية.

٢ ـ وثانيهما : أن يكون الوحي بتكليم النَّبيِّ بواسطة جبريل. [وهذه الصُّورة لها شكلان:

الشَّكل الأول: أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس ، وكان أشدَّه عليه ، حتَّى أنَّ جبينه ليعرق في اليوم البارد الشديد البرودة ، وحتَّى تبرك راحلته ، وقد جاء الوحي مرَّة كذلك ؛ وفخذه ﷺ على فخذ زيد بن ثابتٍ ، فثقلت على فخذ زيدٍ ؛ حتَّى كادت ترضُّها.

الشَّكل الثَّاني: أن يأتيه جبريل ، ويتمثَّل له رجلاً فيخاطبُه ، كما قال ﷺ: «أحياناً يتمثل لي الملك رجلاً ، فيكلِّمني ، فأعي ما يقول..» وفي روايةٍ: «وهو أهونه عليَّ».

وقد يرى ﷺ المَلَكَ في صورته الَّتي خلقه الله عليها ، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع مرَّتين][1].

[وقد صوَّر الصَّحابة ـ فيما أوردوا من وصف الرَّسول ﷺ ـ آثار هذه الظاهرة ، ظاهرة الوحي ، فذكروا : أنَّ الرَّسول ﷺ كانت تبدو على وجهه الكريم أماراتٌ معيَّنةٌ في كلِّ مرَّةٍ ينزل عليه القرآن ، وكان أمر هذه الظاهرة لا يخفىٰ على أحدٍ ممَّن ينظرون إليه ـ كما تروي الأحاديث الصَّحيحة ذلك ـ يرونه قد احمَرَّ وجهه فجأةً ، وأخذته حمَّى شديدةٌ ؛ حتى يتفصَّد جبينه عرقاً في اليوم البارد ، وثقل جسمه... وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه الشَّريف ﷺ أصواتاً مختلطةً تشبه دويَّ النَّحل ، ثمَّ لا يلبث أن تُسَرَّى عنه تلك الشِّدَّة فإذا هو يتلو قرآناً جديداً ، وذكراً للعالمين.. إنَّ ظاهرة الوحي لا يمكن أن تكون متكلَّفةً ، ولا مصنوعةً ، ولا سيما إذا تأمَّلنا تلك الأصوات المختلطة الَّتي كانت تُسمع عند الوجه النَّبويِّ الشَّريف. ولو كانت صناعةً ، وتكلُّفاً ؛ لكانت طوع يمينه ، فكان لا يشاء يوماً أن يأتي بقرآنٍ جديدٍ إلا جاء به من هذا الطَّريق الَّذي

---

(١) انظر كتابنا «لمحات في علوم القرآن» ص ٤٨ ـ ٤٩.

اعتاد في تحضيره . . فلقد كانت تنزل بالنَّبيِّ نوازل يتطلَّب لها حلاًّ ، وكذلك كلُّ من حوله ، فلا يجد في شأنها قرآناً يقرؤه على النَّاس][1] .

أمَّا الطَّريقان الآخران ؛ فهما كما يأتي :

أوَّلهما : أن يكون بتكليم الله النَّبيَّ من وراء حجاب ، وبشكلٍ مباشرٍ ، ويسمع النَّبيُّ الكلام ، كما كلَّم الله سبحانه موسىٰ عليه السَّلام من وراء الشَّجرة كما نصَّ على ذلك القرآن : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص : ٣٠] .

وثانيهما : أن يكون بإلهام النَّبيِّ في حالة اليقظة ، وإلقاء المعنى في قلبه من غير أن يرى المَلَك ، كما قال ﷺ : «إنَّ روح القدس نفث في رُوعي : أنَّه لن تموت نفسٌ حتَّى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله ، وأجملوا في الطَّلب» رواه ابن ماجه ، وابن حبَّان ، والخطيب ، والبيهقيُّ[2] .

معاني الحديث :

وأمَّا المعاني الَّتي نجدها في هذا الحديث ؛ فنستطيع أن نذكر الأمور الآتية :

ـ في الحديث تقريرٌ لبعض الحقائق الخالدة ممَّا سبق ذكره ، وقد وردت هذه الحقائق في تضاعيف حكاية هذا الخبر العظيم :

* فقد جاء في هذا الحديث ذكرٌ لبداية الوحي ، ولبعض صوره ، وتأريخٌ لأوَّل آيةٍ نزلت في القرآن ، وأين نزلت .

* وفيه عرضٌ مشوِّقٌ لطرفٍ من سيرته ﷺ قبل النُّبوَّة .

* وفيه تقريرٌ لحقيقةٍ أزليَّةٍ كانت ، وستبقىٰ ما دام في الأرض أبرارٌ ، وفجَّار ، وهي أنَّ دعاة الخير يقابَلون بالاضطهاد ، والتَّعذيب ، والإخراج ، والتَّكذيب ، وهذه بشرى للمظلومين الَّذين يتعرَّضون لإيذاء طواغيت الشِّرك والضَّلالة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، بشرى تقول لهم : اعلموا : أنَّ طريقكم الَّذي

---

(١) لمحات في علوم القرآن ص ٥٠ ـ ٥٢ .

(٢) المستدرك ٢/ ٤ ، وابن ماجه برقم ٢١٤٤ ، والفقيه والمتفقِّه ١/ ٩٢ ـ ٩٣ ، ومناقب الشَّافعيِّ للبيهقي ١/ ٣٢٤ ، وموارد الظَّمآن برقم ١٠٨٤ .

تمضون فيه هو الطَّريق الصَّحيح ، وآية ذلك ما تلقونه في أنفسكم ، وأهليكم ، ومعاشكم ، وهذا ما لقيه الأنبياء ، والدُّعاة ، والمؤمنون ، فاصبروا إنَّ العاقبة للصَّابرين .

* وفي الحديث تقريرٌ لحقيقةٍ أيَّدتها وقائع الحياة ، وأحداث التَّاريخ القريب والبعيد ، وهي أنَّ من كان متَّصفاً بمحاسن الأخلاق لا يضيِّعه الله .

* وفيه أيضاً: أنَّ رسالات الله الَّتي هي في أصولها واحدةٌ تدعو إلى توحيد الله ؛ طرائق الوحي فيها متقاربةٌ متشابهةٌ ، فالمَلَك الَّذي أُنزل على محمَّد هو الَّذي أُنزل على موسىٰ ، وعيسىٰ ، وممَّا يدلُّ على وحدتها أيضاً ما بشَّرت به الكتب السَّابقة بنبوَّة محمَّدٍ ﷺ .

* وعرض الحقائق من خلال القصَّة يمكِّن لهذه الحقائق أن تستقرَّ في النُّفوس ، وتشدَّ السَّامع ، والقارئ لمتابعة الموضوع ، فالقصَّة تميل إليها النَّفس ، ولا سيما إن كانت القصَّة تُحكى لمسلمٍ عن رسول الله .

* وكان الحديث قائماً علىٰ الحوار الموجز المركَّز المُثير . ففي الحديث حوارٌ بين الرَّسول والمَلَك ، وحوارٌ بين خديجة والرَّسول ، وحوارٌ بين الرَّسول وورقة ، والحوار يضفي الحيوية على النَّصِّ .

* وفي الحديث صورٌ بيانيَّةٌ موفَّقةٌ رائعةٌ ، فالرُّؤيا جاءت مثل فلق الصُّبح ، وفيه التَّعبير عن الفزع بارتجاف البوادر الَّتي بين المنكب ، والعنق ، وذلك لا يكون إلا في الفزع الشَّديد . وفي الحديث صورٌ أخرىٰ ، كقول ورقة : يا ليتني أكون جَذَعاً!

* * *